بغداد

من قلم حضرة المعلم داود افندي صليوا

بغداذ اعظم مدن العراق واهمّ (ويقال لها مدينة السلام وقد لُقِّبَت بالزوراء ايضاً) بناها الخليفة المنصور عوضاً عن قطنون وسلوق المعروفتين بالمدائن اللتين خربتا على يد المسلمين . وجعلها مقرّ الخلافة وكانت في عصر عزها ينبوع المعارف في كل علم وفن ومعدن العلماء والشعراء والفقهاء المشاهير. وكما ينبئنا تاريخها ان عصر العلوم العربية الذهبي لم يبتدئ الاّ بعد قسمة المملكة الاسلامية وقيام بغداذ ومن اغرب الامور التاريخية ان اوروبا نفسها صارت مدينونة لخالفي ديانتها وحرّيتها باثمن دروسها في العلوم والفنون وهم بنو العباس وغيرهم في بغداذ

ووجه تسميتها بغداذ ان بغ بالعجمية بستان وداذ اسم رجل اي بستان داذ ولعلّ هذا اجود التعاليل التي ذهب اليها المؤرّخون . وهي على ضفتي دجلة في عرض شمالي ٣٣° ١٩′ ٥٠″ وطول شرقي ٤٤° ٢′ ١٥″ فيقسمها الى شطرين ويُسمّى الجانب الشرقي منها بالرصافة . ويحدّهُ شمالاً سهل واسع وجنوباً نهر دجلة وشرقاً ارض كرارة ونهر ديالة وغرباً الامام الاعظم . ويُسمّى الجانب الغربي بالكرخ . ويحدّهُ شمالاً نهر دجلة وجنوباً نهر المسعودي ونهر الخرّ . وشرقاً ملتقى نهر الخرّ ودجلة وغرباً الامام الكاظم . واهلها يعبرون النهر على جسر مركّب من عدة زوارق وهي مدينة من اشهر مدن العراق (لانها كانت في بادئ امرها مقر الخلافة والدولة الاسلامية والآن قد صارت مركز ولاية العراق) ذات ابنية جميلة وعمارات فاخرة ولاسيما الجديدة منها . وبناؤها من الآجرّ والكلس والجص والرماد الاسود والنورة والطين وفيها الزجاج بانواعهِ وياتيها المرمر من الموصل . وتُرَى عن بعد من اجمل المدن والطفها منظراً وقد ركّب داخلها على النهر انابيب حديدية تحت الارض تجري منها المياه الى بعض الدور وتصبّ في برك لتسقي الجنائن والحدائق . وغير حديدية تجري الى حماماتها وتسقي بساتينها وفي بعض البساتين نواعير لطيفة . وكانت هذه المدينة ذات سور حصين يبلغ ارتفاعهُ ما بنيف على مئة قدم . وقد هدم اغلبهُ حضرة ذي الاية دولتلو مدحت باشا وشيّد بحجارهِ معامل ومدارس كما سيجيء . واهلها يسكنون صيفاً سراديب تحت الارض لشدّة الحرّ نهاراً ويرقدون ليلاً فوق الرصيف . ويعسر سلوك ازقتها في الشتاء ولاسيما في الايام التي تسكب عليها الماء غيث مراحها وذلك لكثرة الطين والوحل خصوصاً في الطرق التي يسير فيها السقّاؤون . وكذا صيفاً لكثرة الغبار والتراب . ويبلغ عدد سكانها من الذكور نحو ستين الفاً مسلمين ونصارى ويهوداً وفيها لفيف من اجناس مختلفة كالفرس والاتراك والهنود والاكراد والافرنج وغيرهم ولم تزل ارجل الضيوف تطأها احياناً افواجاً افواجاً من كل ملة وقبيلة لاسيما العجم الذين يمرّون فيها في زيارتهم الامام الكاظم والحسين والمشهد الخ . هذا فضلاً عن الذين

يدخلون اليها ولا يخرجون . ومن اعجب الامور ان الذين يدخلونها لا يريدون الخروج منها ومن خرج لحاجةٍ فانك ترى عليهِ اثقال الغم وعلى وجههِ لوائح الهم والكدر لحرمانهِ مشاهدتها فيما بعد

واما اهلها فانهم على جانبٍ عظيم من رقة الخاطر ومحبة الغرباء الاَّ ما ندر. والنصارى فيها خاصةً مختلفون اختلافًا افرنجية في لبسهم واكلهم وشربهم وزيارتهم لاخوانهم رجالاً ونساء . ومما يشهد لنا بحسن طويتهم ومحبتهم لعمل الرحمة ما حدث في هذه الايام المعسرة التي عمت اسود سنيها العادية في هذه الاقطار. كيف انهم اهتموا بالمهاجرين الذين قصدوهم من البلاد ومدوا لهم يد العون وردوهم الى اوطانهم شاكرين وذلك قد لهجت بهِ السنة الجرائد . وفيهم محبة للعلوم والفنون وانشاء المدارس واقامة المعامل الاَّ ان تباين الآراء لم يمكنهم من الوصول الى تكميل اربهم

اما تجارتها فاكثرها في البضائع الهندية التي تجلب اليها من الهند وبنكالا والبضائع الافرنجية وغيرها وفي حواصل البلاد كالصوف والعفص والكتان والدمقس والكثيراء وغيرها . وقد حُصرت تجارة بعضهم بهذه الايام المتأخرة في الحنطة والشعير والدخن والارز والسمسم والذرة والهرطمان والماش والعدس والحمص والفول حتى ارتفعت اثمانها وضيق على الفقراء . فعمَّت الفاقة اغلب الاهالي لان تجارها لم يكتفوا بان يشتروها من الخارج ويبيعوها بايديهم بل قد اصرُّوا على حكرها وبيعها باثمان فاحشة . وقد اخبرني مَنْ أثق بصدقهِ ان جميع الحكارين في هذه السنة ربحوا بالقرش الذي اشتروا بهِ الحنطة اكثر من مئتي قرش وهلك الضعيف الحال الضيق اليد الكثير العيلة فالامر لله الواحد القهار

واما معاملها ففيها معامل للآجرّ ومعامل للخزف تصنع فيها الاجرار والاباريق الفاخرة العديمة المثيل وغير ذلك من الخزف الابيض والاخضر . وفيها معامل حريرية تُنسج فيها الارز وغيرها من الملبوسات الدمقسية بانواع مختلفة من الطف الملبوسات ولاسيما الارز المقصبة التي يحلونها بالسرمة منسوجة مع الابريسم فتراها تبهر الابصار . ومعمل للزجاج والقناديل والشبش وغيرها وخمسة معامل للبارود ومعملان لتصليح المراكب وفيها معامل اخرى افرنجية أُنشئت بهمة صاحب الدولة مدحت باشا فمنها في الجانب الشرقي (الرصافة) مطبعة نارية فيها اربع آلات ثنتان للطبع وواحدة لتحسين الاقمشة واخرى لعمل ظروف المكاتيب وفيها مطبعة حجرية جيّدة للغاية . ومنها معمل يُعرَف بالاعمالات العسكرية يُصنَع فيهِ الجوخ والخام وتُنسج فيهِ الملبوسات من الحرير والصوف والقطن والقزّ وغيرها من كل لون وذلك بآلات نارية . وفيها آلة للتفصيل والخياطة . وقد باشروا حديثًا حفر بير ارتوازية بهمة مسيو ماسيون الفرنساوي مدير المعمل . الاَّ انهم لم يظفروا باملهم لعوارض شاقة منعتهم عن اتمام مرغوبهم وفيها معمل لتنظيف القطن وآخر لتنظيف الارز ومطحنة نارية عسكرية . ومعمل للجلود معروف بالدباغخانة تُعمل فيهِ الجلود الافرنجية . ومنها في الجانب الغربي (الكرخ) معمل لتصليح المراكب

العثمانية ولعمل آلات جديدة ويعرف بالدميرخانه

واما مدارسها فثمان قانونية اربع منها تحت ادارة الحكومة السنية وهي اولاً المدرسة الاعدادية اي الحربية . ويدرس فيها اللغة التركية والفرنسية والفارسية والعربية والجغرافية والحساب والمنطق والهندسة والجبر والتواريخ والتصوير والجمناز . ثانياً المدرسة الرشدية العسكرية وتدرس فيها اللغة التركية والعربية والفرنسية ومبادي بعض العلوم التي تدرس في المدرسة الاعدادية لانها كمدرسة ابتدائية لها . ثالثاً المدرسة الرشدية وتدرس فيها اللغة التركية والعربية والفارسية وبعض العلوم . رابعاً مدرسة الصنائع ويُعلَّم فيها بعض الصنائع كالحياكة والسكافة والخياطة . واربع مدارس لاهل الوطن اولاها وثانيتها مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكي ام المدارس وراسهنَّ . وتدرس فيها اللغة العربية والفرنسية والتركية والانكليزية والكلدانية والسريانية والصرف والنحو والفصاحة والحساب والجبر والهندسة والمنطق والتواريخ المقدسة والعالمية والفلسفة العقلية والجغرافية والمساحة وغيرها من العلوم الرياضية ولكثرة اقبال الطلبة قد قسمت الى اثنتين فزادوها معلماً للصغار يدرسهم مبادئ اللغات المذكورة مع بعض مبادىء العلوم . وثالثتها مدرسة الاتفاق الاسرائيلي . وتدرس فيها اللغة الفرنسية والعربية والانكليزية والتركية والعبرانية والحساب والجغرافية والصرف والنحو والجمناز الخ . ورابعتها مدرسة المرسلين الكرمليين الفرنساويين وتدرس فيها اللغة الفرنسية والعربية والصرف والنحو والجغرافية والحساب . وفي بغداد عدة مدارس ابتدائية غير قانونية لاحاجة الى ذكرها . وقد كان للارمن غير الكاثوليك مدرسة غنية فيها خمسة معلمين وثمانون تلميذاً وكان يدرس فيها اللغة الارمنية والفرنسية والعربية والانكليزية والتركية غير ان الشقاق والنزاع والانقسامات وتفرُّق الآراء التي حصلت بين هذه الطائفة صاحت بالخراب والدمار حتى ابتلعوا معاشات المعلمين وسدوا ابواب المدرسة وتركوا ام راشد تسابق سامّ ابرص فيها ولم يكترثوا لما لحقهم من العار وقد اكتفوا الآن بمدرسة صغيرة ليست خليقة بالذكر فيها معلم شيخ عاجز بنيف عمرهُ على الثانين قد اعياهُ كبرسنه عن الشغل فيدرس فيها خمسة عشر طفلاً من ابن ست سنين فما دون مبادي اللغة الارمنية لا غير

وليست لمن طابت مباديهِ غبطةٌ ولكن لمن عنباهُ بالخير تختمُ

واما معابدها فلنصاراها خمسة معابد الاوّل (نظراً لكبر الطوائف فيها) كنيسة الكلدان . والثاني كنيسة السريان . والثالث كنيسة الارمن الكاثوليك . والرابع كنيسة المرسلين الكرمليين . والخامس كنيسة الارمن غير الكاثوليك . وللهود فيها خمسة وعشرون معبداً واحد كبير جداً وخمسة اصغر منهُ قليلاً وما بقي فبين بين ولهم مزارات خارج البلد مثل مزار الكوهين يوشع وغيرهُ يترددون الى زياراتها ايام مواسمها . وللمسلمين جوامع عديدة لاغلبها منارات واعظم جوامعهم جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني والامام المعظم

واما مقابرها فللنصارى الكاثوليك مقبرة واحدة . ولليهود اثنتان . وللمسلمين عدة مقابر وواحدة للانكليز وواحدة للارمن غير الكاثوليك . واما بيوتها فتبلغ على ١٨٠٠٠ بيت . واما حماماتها فتبلغ خمسة عشر حماماً وكلها مشهورة وفيها حمامات اخرى في دور كثيرين من الاكابر . واما اطباؤها ففيها مقدار عشرين طبيباً من فرنساوي وانكليزي ونمساوي وغيرهم . واما صيدلياتها فسبع . الاولى الصيدلية الاوربية . الثانية الصيدلية الانكليزية . الثالثة الصيدلية الشرقية . الرابعة الصيدلية السرفية . الخامسة صيدلية الخواجا فتح الله لوقا . السادسة الصيدلية الفارسية . السابعة صيدلية الخواجا ديتري

واما مزروعاتها فالحنطة والشعير والدخن والسمسم والذرة والهرطمان والماش والعدس والارز والفول والطماطا واللوبياء والقرع والحمص والباذنجان والخجل والجبس والبطيخ والخيار والبصل والثوم والبقدونس والكراث والريحان والكزفس والخردل والرشاد والنعناع والخسّ والحلبة والسلجم والشمندور والجزر والباميه والحمناه وغيرها وفي بساتينها الثمر بجميع انواعه والليمون الحامض والحلو والبرتقال خمسة انواع والنارنج والقرنج والتوت والزيتون والرمان والمشمش والخوخ والعنب والتفاح والاجاص والكمثري والتين . ولا زالت بغداد قريبة فيضان النهر الذي تكفي شرهُ وتوقي خرابه ودمارهُ . ويكثر فيها الحريق لضعف بيوتها بالخشب . وتربتها جيدة تصلح لاكثر المزروعات ومناخها طيب وهواؤها لذيذ رقيق ويكثف احياناً في الصيف والربيع والخريف ولا سيما في الربيع الاّ ان جزءاً عظيماً من اراضيها قد اقفر لعدم الاعتناء بفلاحته مع ان اهل اكثر ضواحيها فلاحون ومتجرها متسع جداً وقد اشتهرت بغداد قديماً بامور كثيرة كما اشرنا اليها سابقاً . واما الآن فقد انحطت عما كانت عليه فنسأل الله ان يفيق اهل الوطن ويستفزهم من سباتهم الثقيل ويجعل دابهم نجاح الوطن وترقيته مادياً وادبياً بقطع النظر عن الجنس والملة والمذهب لان التحزُّب للمذهب والجنس ينزع عن الوطن ثوب السعادة والعزّ ويكسوهُ ثوب الذل والخزي والعار . ولعلّ هذه هي العلة الوحيدة لتفقر وطننا الاّ انهُ مما يوطّد آمالنا على صخرة الثبات مع ما ذكر من الاخذ باسباب النجاح ما باشرهُ اهل الغيرة في هذه الايام من عقد شركة (مع كل من احب الاشتراك) وجعلها اسهماً لانشاء طريق حديدية تمتد الى كربلا والحسين ثم الى النجف واذا ساعدهم الحال وعلا طالعهم في سماء الاقبال مدّوها الى كركوك والموصل وغيرها من البلاد

واما اخلاق اهلها وقلباتهم وعوائدهم فانهم على جانب عظيم من حب الفخفخة والمجد الباطل وطلب المدحة وان يكون لهم سماع عند غيرهم بدون تهذيب الاخلاق . ولذلك كل ما يتمناهُ احدهم لنفسهِ من المدح والخير والاعتبار والتقدُّم لا يروم ان يرى ابن وطنهِ حاصلاً عليهِ . ولا يُستثنَى من ذلك الاّ قليلون هذا وقد تقدّم ان النصارى في الدرجة القصوى من حب التخلق بالاخلاق الافرنجية ولا سيما

النساء والبنات في تغيير زي ملبوسهنّ وعوائدهنّ داخلاً وخارجاً والحلى والتزيّن بالجواهر النفيسة مع قطع النظر عن التفنن بجلى الآداب والتمدن . ولا يشتتن الى تبذير الدرهم والدينار يومياً في طريق الصياغة وحياكة الازر المنوعة . ولكنهنّ يشفقن على ازواجهنّ بانفاق بضعة دراهم سنوياً على آداب اطفالهم وتهذيبهم في المدارس او على مشترى كتاب او ورق او نحوه ويجبرنهم على اخراجهم من المدرسة وافساد آدابهم وتعويدهم على الجولان في الازقة مع الاشرار او وضعهم في مدرسة غير اهل بشانهم لكونها مجاناً ويغرنّ من لبس ابن فلانة ولا تاخذهنّ الغيرة من آداب ابن فلان وتمدنه وعلمه وحسن اخلاقه غير متذكرات ان زينة الفتى ليست في الثياب الناعمة والحلى الثمينة بل في الآداب والمعرفة

فعل الجوع بالدم

في الساعة الاخيرة من صوم الدكتور تر الذي ذكرناهُ قبلاً استخرج قليل من دم يده ونُظِر اليه بالمكرسكوب نظراً مدققاً فاذا به يختلف عن دم الاصحاء اختلافاً عظيماً لان كريّات دم الاصحاء اقراص مستديرة ملساء مقعّرة في وسطها وقطرها $\frac{1}{3600}$ من القيراط واما كريات دم الدكتور تر اى بالحري الحمراء منها فكانت كثيرة الغضون والتوات وقطرها نحو $\frac{1}{5000}$ من القيراط فقط . نعم ان كريات الدم اذا نُظِرت بالمكرسكوب بعد ان جفّت بانت كذلك ولكن هذا الدم فُحِص حال استخراجه تماماً فلا محل للريب في انهُ كذلك طبعاً . ونسبة عدد الكريات البيضاء الى الحمراء في دم الاصحاء كنسبة ١ الى ٤٠٠ واما في هذا الدم فكانت كنسبة ١ الى ١٠٠ فقط وكثيراً ما كانت الكريات البيضاء تظهر فيهِ ملتصقة بعضها ببعض وهنا لايكون البتة في دم الاصحاء . والظاهر ان هذه التوات التي بانت على الكريات الحمراء هي ناميات قطرية نتأت بالكريات نفسها لانها حينما كثرت صفرت الكرية كثيراً او تجزّأت وصارت غير صالحة لتبقى في الدم كما يحدث في اغلب المواد الفاسدة . وبما ان الكبد وظيفتها اخراج كريات الدم الفاسدة تعبت كبد الدكتور تر كثيراً في الايام الاخيرة من صومهِ فاصفرّ لونهُ وكثر تبيّنهُ للصفراء ولكنهُ لما فطر بعد نهاية الصوم لم يمضِ عليهِ ٢٤ ساعة حتى تغيّر دمهُ تغيراً كبيراً فزالت التوات القطرية عن كثير من كريّاتهِ فضلاً عن ان كريات جديدة ملساء دخلت دمهُ من الغذاء الذي اغتذى بهِ وفي اليوم الثاني صار نصف دمهِ صحيحاً وفي الثالث صار اكثرهُ صحيحاً

والمظنون ان كثيرين صاموا صوماً طويلاً ولكن ما منهم من بلغ شأوَ الدكتور تر او كان تحت مراقبة دقيقة مثلهُ